من رياق الى حماة

رحلة حديثة للاب لويس شيخو اليسوعي

بارك الله في البخار فانهُ خوَّل الانسان اجنحةً ضنَّت بها عليهِ الطبيعة . بارى الطائر في سيرهِ فغلبهُ في سرعتهِ وقطع في بضع ساعات ما لم يقطعهُ سابقًا الَّا بعد ايَّام طوال ومشاقّ تشقّ بها النفس

وهاك السكَّة الحديديَّة الجديدة بين رياق وحماة قرَّبت الينا بلادًا كان اهلها وهم من بني الاوطان ابعد عنَّا من ذوي الاصقاع الاجنبيَّة لقلَّة الوسائل الرابطة بين اطراف الولايات فاصبحوا اليوم بتقرُّب المسافات تضمُّنا وايَّاهم اواخيُّ الحبّ واواصر الوداد فذاك ما حملنا على ان نزور اخواننا عشقهم القلب فهويت العين رؤياهم ونتفقَّد اقطارًا زانتها الطبيعة ببراقها وادرَّ عليها الله خيراتهِ العميمة

*

رياق ضيعة صغرى او بالحري ارض غامرة ستصبح عمَّا قليل بلدةً ذات شأن تنتهي اليها سكَّة حماة وتحطُّ عندها سكَّة الشام وبيروت . فترى فيها من حركة الاعمال ما لم يخطر قبل سنتين على بال . فسبحان ناشر الوفات ومحيي الموات

اقلعنا من رياق نحو الساعة الثانية بعد ظهر الجمعة في ١٩ ايلول في قطارات تضمن للسَّفر كل اسباب الراحة من سعة مساندها وحُسن مقاعدها ولين سيرها بحيث يمكن المسافر ان يقرأ ويكتب دون عناء كانهُ في غرفة اشغالهِ مع انَّ القطار يقطع ٣٠ كيلو مترًا في الساعة ولو شاء لأربى على ضعف هذه المسافة

ومما يأخذهُ الركَّاب على هذه السكة انَّها تشحن البضاعة وتثقلُ الركاب معًا وهذا مما يورث السأم لطول الاقامة في المحطات ولو أُفرد للبضائع قطار خاصّ لكان اولى . وهو امر انتبهت اليهِ الشركة فتجري عليهِ ان شاء الله اذا ما توفرت الصادرات والواردات وكثرت المعاملات التجاريَّة

وقد سمعنا البعض يلومون السكَّة على ارتفاع اسعارها في نقل الركاب لكننا لا نوافقهم على ملامتهم مع ما تكلَّفهُ اصحاب العمل من النفقات في مسافة يبلغ طولها

نحو ضعف المسافة بين بيروت ودمشق . وما لا يختلف فيه اثنان انَّ اثمان الشحن متهاودة جدًّا اذ لا تكلف اصحابها الَّا ثلث ما كانوا يتقونهُ سابقًا على الجمال فضلًا عن سرعة النقل ووفرة الأمن ووصول البضائع سالمةً الى ايدي التجار

تسير السكة من رياق ووجهتها الشمال في بقاع رحاب واراضٍ كثيرة الخصب زكيَّة الريع وعلى جانبيها من بعيد جبلان لبنان عن يسارها والجبل الشرقيّ عن يمينها كانهما سوران حصينان يدفعان عنها نكبات الزمان ويحدران اليها مياهًا تزيدها دسمًا ونعمة

وليس بين رياق وحمص محطَّةٌ تُذكر اللهمَّ الَّا بعلبكّ فانَّ آثارها العجيبة ستصبح مقاماً يتوارد اليهِ كلُّ طالبي عاديَّات الاقدمين لاسيَّما بعد إذْ ظهر كثير من معالمها الدارسة وطلولها البائدة بهمَّة البعثة الالمانيَّة التي تولَّت حفر هذه القلعة الشهيرة فابرزت شيئاً من محاسنها المشوَّهة بيد الحدثان . هذا فضلًا عمَّا في بعلبكّ من المياه الجارية والحدائق الغنَّاء مما يجعلها كراحٍ في وسط هذه البطحاء

ثم تجري السكة نحو ساعتين مارَّة بمحطَّتي لبوة ورأس بعلبكّ بعيدًا عن القريتين ولا يجد المسافر ما يرتاح اليهِ نظرهُ في هذه السهول حتى يتجاوز القُصَير فيرى من عن شمالهِ نهر العاصي وبحيرة قطينة المعروفة سابقًا ببحيرة قدَس والعلماء يرجحون انَّ في نواحيها كانت مدينة قدَس احدى عواصم دولة الحثيين وهذه البحيرة متوسطة في سعتها وهي طيِّبة الماء وقد فكَّر اهل حمص ان يجلبوا مياههـا الى مدينتهم بالقنيّ فيستغنون عن نقل مياه العاصي بالتربّ مع كثرة ما يدخلهُ من الجراثيم الضارَّة والاقذار الموبئة ولعلَّهم يفعلون ان شاء الله

*

حمص احدى قواعد بلاد الشام موقعها في فضاء من الارض كانت تُعَدّ سابقًا من اجلّ مدن الشرق منعةً وعمارةً وهي طيِّبة الهواء كثيرة البساتين طيِّبة الفواكه . واوَّل ما يُشاهد منها راكب السكَّة قلعتها الحصينة التي تُرى منها المدينة على احسن صورة فيمتدُّ منها البصر الى سائر جهات الأفق لا يحجزهُ الَّا ما ينتصب عن بُعد من جبال عكَّار وجبال النصيريَّة ولبنان . وهذه القلعة اليوم ردمٌ مهجور فرقهُ شيء من الابنية المتداعية

لحمص تاريخ جليل في الاعصار الغابرة ولها من الآثار القديمة من زمن الحثيين

واليونان والرومان والعرب ما يشهد على خطرها وعظم شأنها الا اننا نحجم عن وصف هذه العاديات لئلاً نكرر ما كتبهُ في هذا الصدد حضرة الاب جرون سابقاً (المشرق ١ : ٧٦٩). وقد نشر حضرة الاب لامنس بالافرنسية عدداً وافراً من الكتابات اليونانية التي اكتشفها في هذه المدينة (L' Emésène, 1902) فنكتفي بذكر ما رأيناهُ فيها رأي العيان

حمص قائمقامية يبلغ عدد اهلها خمسين الفاً منهم ثلاثون الفاً مسلمون والباقون نصارى من روم اورثدكس ويعاقبة وكاثوليك من طوائف شتى وهي كرسيّ لثلاثة اساقفة روم ملكيّ وروم اورثدكسيّ ويعقوبيّ . وللكاثوليك اليوم في حمص مقامٌ لم يعهدوهُ من ذي قبل خصوصاً منذ دخلها الآباء اليسوعيون فانقطعوا للوعظ وتفرَّغوا لجميع اعمال البرّ من عيادة المرضى واسعاف الفقراء وتهذيب الاحداث ولهم مستوصف يُقبل عليهِ كل يوم نيّف ومئة من اصحاب العاهات توزَّع عليهم الادوية مجّاناً ويعالجهم احد فطاحل الاطباء وهو الدكتور البارع سمعان افندي المسابكيّ . ولراهبات قلبي يسوع ومريم في حمص من المشروعات المبرورة ما يهيج بالثناء عليهِ كلّ من لم تغشَ على ابصارهِ الاغراض

وللروم الكاثوليك كنيسة مستحدثة وهي الدار التي كان يسكنها قبل ثمانين سنة آل البحري الذين سردنا تاريخهم في المشرق (٩ : ٣). وقد بدأت النهضة الكاثوليكيَّة بين الروم الملكيين في حمص منذ القرن السابع عشر. واليوم اماليهم وطيد في ان راعيهم الجديد صاحب الغيرة والهمَّة السيد المفضال فلابيانوس الكفوري يعيد لهذه الطائفة عزَّها ورونقها ويضمّ الى حظيرتها الخراف الضالَّة

امَّا السريان الكاثوليك فهم اليوم قطيعٌ صغير لا يزال ينمو ويقوى على يد حضرة الاب الغيور ذي الفضل والتقى القس انطون عبد صمد يساعدهُ في عملهِ ونشاطهِ احد اساتذة الآباء اليسوعيين القس اوجين دلّال. حقَّق الله امانيهما بانارة المتسكعين في ظلمة الضلال

والروم الارثدكس في حمص اكثر طوائف النصارى عدداً. وقد اخذ رعاتهم في الاهتمام بامورهم منذ عهد قريب. فانَّ الجمعية الروسية الفلسطينية انفقت مبالغ طائلة في

تشييد كنائسهم ومدارسهم الحديثة. فقد زرنا هذه الابنية الفخيمة وسُررنا بما لقينا في اصحابها من اللطف والانس

وكنائس الروم الاورثذكس في حمص ثلاث اقدمها كنيسة القديس إليان او جوليان فيها وراء هيكلها ضريح من رخام يزعم الناس انَّ فيهِ ذخائر هذا القديس المستشهد في القرن الرابع وليس هناك كتابة تشهد على صحَّة هذا القول. والكنيسة الثانية تُدعى كنيسة التلّ لموقعها فوق ربوةٍ مطلَّة على البلد وفي هذه الكنيسة الاقنسطاس البديع العمل الذي وصفهُ جناب الاديب يوسف غنَّام ثابتَ في المشرق (٥: ٦١٨) نُقل اليها من الكنيسة الكاتدرائيَّة لمَّا جُدِّد بناؤها. اما الكنيسة الثالثة فهي كنيسة القديس يوحنَّا المعمدان الكاتدرائيَّة شُيِّدت قبل بضع سنين في مقام كنيسة أُخرى قديمة. وانتقالها الى القديس يوحنَّا المعمدان انَّما هو ذكرٌ لهامة القديس يوحنا الصابغ التي كرَّمها النصارى في حمص في القرنين الخامس والسادس كما ورد في المؤرخ يوذوكيوس وفي السنكسارات الشرقيَّة والغربيَّة (راجع المشرق ١: ٧٧٥). وفي هذه الكنيسة منبَرٌ من خشب يناسب الاقنسطاس القديم حسنًا ودقَّة صنعة وكلاهما من عمل اهل حمص قبل ١٥٠ سنة ووجدنا ايضًا في هذه الكنيسة بعض كتب طقسيَّة مخطوطة اخصُّها سنكسار قديم كُتب في القرن السادس عشر. وقد لحظنا بين صوَر هذه الكنيسة صورة بديعة مرسومة على الخشب بالوان تمثل الانفس المطهريَّة في لهيب النار وفوقها المسيح لذكرهِ السجود يدعوها الى الراحة الابديَّة. وفي دار الكنيسة جرس ضخم اهدتهُ روسيَّة الى هذه الكنيسة لم يُبنَ لهُ حتى الآن قبَّة ليُجعل فيها

وللعاقبة كنيسة متوسِّطة في الكبر شيَّدوها منذ نصف قرن بدلًا من كنيسة اخرى قديمة ذهبت آثارها. وكُتب هذه البيعة كلُّها مخطوطة بالعربيَّة والكرشونيَّة بينها سنكسار كرشونيّ قديم

وكانت كنائس حمص في سالف الزمان عديدةً ولا يزال يُرى شيء من آثارها في بعض بيوت الخاصَّة

وللمسلمين في حمص الدور الرحبة والمعاهد الطيِّبة والمساجد الحسنة تخصُّ منها بالذكر الجامع الكبير ومقام السيِّد خالد وقد مرَّ ذكرهما في المشرق (١: ٧٧٥).

وكذلك بعض بيوت الخاصة من باشاوات واعيان البلد. وقد فاز اليوم بينها بيت السيد الدروبي الذي تمَّ بناؤهُ مؤخرًا

واهل حمص عمومًا اصحاب جدّ وعمل لا ترى بينهم من صغار او كبار اناث او ذكور احدًا فارغًا وهذا بلا شكّ المعُ دليل على حسن آدابهم وسذاجة معاشهم كما انهُ اضمن الوسائل لصحّة ابدانهم. واكثر شغلهم الانوال وهم يشتغلون الحرير والصوف واصناف الاقمشة. وحريرهم يتّخذونهُ من الدود المربّى في ضياع عديدة شمالي المدينة وشرقيها. امَّا الصوف فيجزُّونهُ من اغنامهم التي تسرح في البراريّ المجاورة. وهم يصطنعون كل اجناس الانسجة كالاطالس والكفيّات الملوّنة اشهرها المعروفة بالخمريّة وكالمناشف الحريريّة والزنانير الدقيقة الصنع والثياب المزركشة بالقصب. وهذه المنسوجات تُرسل الى كل انحاء الشرق وخصوصًا الى مصر والاستانة العليّة وسواحل الشام وبرّ الاناضول

ومن مرافق حمص غلّاتها الواسعة التي تزيد على سكّانها فتُنقل محصولاتها من حنطة وشعير وذرة وعدس الى كل البلاد المجاورة. وربَّما صدرت هذه المستغلّات الى الاقطار البعيدة فاتت اهلها بارباح بالغة. ومنها ايضًا المواشي العديدة وما يلحق بها من ألبان والسمن الجيّد والجبن. وزد على ذلك فواكهها الطيّبة المجتناة من بساتينها الرحبة

وقد اجتمعنا في حمص ببعض ادبائها المشاهير من مسلمين ونصارى كاصحاب الفضل الشهير والحسب الاثير من آل الجندي وآل الاطاسي وآل الزهراوي وآل الحوري فلقينا بين جميعهم من المجاملة ورقة الطباع وسعة المعارف ما زادنا اعتبارًا لذواتهم الكريمة

وكان ممَّا دفعنا الى هذه الرحلة الامل بان نعثر على بعض المخطوطات الشرقيّة التي لم يُخنِ عليها الدهر. فلم يخب والحمد لله هذا الامل. وممَّا اصبنا في حمص بعض المخطوطات كتفاسير للانجيل وللرسائل نظنها لابن الفضل الانطاكي من مشاهير اساقفة الملكيين في القرن الحادي عشر وكتب طقسيّة بالعربيّة واليونانيّة ومواعظ منقولة عن اليونانيّة وتراجم بعض اولياء الله من جملتها ترجمة القديسة مارينا والقديسة كاترينا والقديس براسيموس ومباحثات القديس غريغوريوس والقديس افرام. ومن هذه الآثار نسخة قديمة من كتاب بستان الرهبان الشهير. ومنها كتاب يُدعى «العنوان المكال

بفضائل الحكمة المتوّج بانواع الفلسفة الممدوح بحقائق المعرفة اعتنى بجمعه الشيخ الفاضل والفيلسوف الكامل اغابيوس بن قسطنطين الرومي المنبجي» وهو تاريخ مفيد. في مكتبتنا الشرقيّة منهُ نسخة أخرى الّا ان هذه اقدم عهدًا وجدناها عند الشمّاس الاديب نجيب دمعه الحمصيّ (١. وعندهُ ايضًا وجدنا عشر صحائف من انجيل القديس لوقا مكتوبة على رق غزال باليونانيّة باحرف جميلة مذهّبات بالذهب والالوان وهي بقايا كتاب انجيل كُتب سنة ١٣٤٤ للميلاد كان يخص كنيسة القديس سرجيوس وباخوس في بصرى من اعمال حوران. ومع هذه الصحائف صورة القديس لوقا الانجيلي منقوشة بدقة بالوان رائعة. ومن خصائص هذه القطع الانجيليّة انّ صاحبها يمزج باقوال لوقا بعض اقوال متى تتمّةً للمعنى. ونضيف الى هذه الكتب التي وجدناها كتابًا آخر يحتوي على تاريخ الاطبّاء لداود الموصليّ نظنُّهُ ملخص عن تاريخ ابن ابي اصيبعة. وكذلك انجيل سرياني مكتوب بالخطّ الملكيّ كان يستعملهُ الروم الملكيّون في طقوسهم سابقًا وهو لاحد اهل زبدل (ستأتي البقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

Report of the Director

OF THE PHILIPPINE WEATHER BUREAU 1901 - 1902
Part first. the Climate of Baguio (Benguet)
by Rev. Fr. José Algué S. J. Manila 1902. p. 75

نشرة الارصاد الجويّة في جزائر الفليبين

لم ينسَ القرّاء ما كتبنا في هذه السنة (ص ٣٧٩) عن مراصد الآباء اليسوعيين في العالم. ونمّا ذكرنا مرصدهم في مانيلا من جزائر الفليبين فانّ لهذا المرصد من الآثار العلميّة ما حمل الدولة الاميركيّة ان تتّخذهُ كمرصدها الرسميّ وتجعل لمديريهِ رواتب معلومة. واليوم قد بلغنا القسم الاوّل من الارصاد الفلكيّة التي تولّت حكومة الولايات المتحدة نشرها على نفقتها وهو من تأليف الاب يوسف ألغه (Algué) المدير الاوّل في

١) وفي دير اللويزة من هذا التاريخ نسخة اطلعنا عليها قبل ١٥ سنة وكذلك في دير الشرفة نسخة منهُ